نظرية الرواية

تعد الرواية من أهم الأجناس الأدبية التي حاولت جاهدة تحويل الواقع والذات وتشخيصهما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وقد استوعبت جميع الخطابات والأنواع الأدبية والفنية الكبرى والصغرى على حد سواء، حتى صارت عالما منفتحا لكل الأشكال والأبنية الجمالية.

1-نشأة الرواية:

"تعد الرواية في أوربا جنسا أدبيا مغمورا، لا قيمة له، حيث الاقبال عليه لا حجة له إلا الترفيه والاستمتاع، ناهيك عن موقف الأسر الأوربية آنذاك ودور الكنيسة ووقفها في الابتعاد عن كل ما هو سفلي ومدنس لأن الرواية ارتبطت بالمجون والفكاهة والغراميات، مقارنة مع الأجناس الأدبية السامية كالملحمة، الشعر والدراما، إن هذه النظرة السلبية سادت حتى القرن الثامن عشر غير أنها غيرت مسارها وانتعشت في القرن التاسع عشر على يد بلزاك وإيميل زولا و توليستوي وديستوفيسكي..." [1]

حيث أصبحت الرواية تقرأ الذات وتمتزج بالواقع والمجتمع والتاريخ، تصور كل ذلك بموضوعية وتخييل فني يوهم بالواقع حتى صارت ملحمة بورجوازية وعُدَّت سلاحا لمناهضة كل أشكال القهر والاستبداد وناشدت القيم الإنسانية بما فيها الحب، الحرية، السلام، حت وصلت إلى ما نحن الآن عليه أكثر التصاقا بالواقع، وهيمنة على الشعر والمسرح باستيعابها للخطابات الأخرى، حيث يرى عبد المالك مرتاض " أن الرواية تتخذ لنفسها ألف وجه وترتدي في هيئتها ألف رداء وتتشكل أمام القارئ تحت ألف شكل مما يعسر تعريفها تعريفا جامعا مانعا، ذلك لأننا نلفي الرواية تشترك مع الأجناس الأدبية الأخرى بمقدار ما

[1] ينظر، د جميل حمداوي، مدخل إلى نظرية الرواية، موقع.Pulpit.alwatanvoice.com 30-12-2007

تتميز عنها بخصائصها الحميمية واشكالها...أما بالقياس إلى اشتراكها مع الحكاية والأسطورة فلأن الرواية تغترف بشيء من النهم والشجع من هذين الجنسين الأدبيين...وذلك على أساس أن الرواية المعاصرة بشكل عام لا تلفي أي غضاضة في أن تغني نصها السردي بالمأثورات الشعبية والأسطورة والملحمة جميعا"[2]فحسب النقاد فإن للرواية نظريتان، (نظرية رواية التحليل الخالص ، نظرية الرواية الموضوعية، ففي النظرية الأولى يطالب أصحابها الكاتب بأن يفصل كل شيء في كتابته فيعمل على ذكر أصغر التطورات لباطن النفس في حين يطالب أصحاب النظرية الثانية بتصويرٍ شديد الدقة ما وقع في الحياة ويتحاشون بذكاء شرح كل التعقيدات من أسباب وأحداث ذلك أنهم يرون ان كل ما له صلة بعلم النفس يجب أن يتخفى في الإبداع كما يتخفى في الحقيقية)[3]

نظريات الرواية:

1 -هيجـــــل:

" يعد الفيلسوف الألماني هيجل أول من قدم نظرية للرواية في الغرب من خلال رؤية فلسفية جمالية مثالية مطلقة . ويذهب هيجل إلى وجود قرابة كبيرة بين الرواية والملحمة، إلا أن الفن الملحمي باعتباره شعرا لم يزدهر إلا إبان الفترة اليونانية، ومن ثم يعبر عن تلاحم الذات والموضوع في إطار انسجام متكامل ومتناغم

[2] عبد المالك مرتاض في نظرية الرواية، عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص 11

[3] ينظر، عبد المالك مرتاض في نظرية الرواية، عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص 16

يعبر عن شعرية القلب. أما الفن الثاني، فهو الفن الروائي الذي يتخذ السرد النثري وسيلة للتعبير عن انفصال الذات والواقع، أو تشخيص الهوة التراجيدية الموجودة بين الأنا والعالم.

وبالتالي، فهو يؤكد نثرية العلاقات الإنسانية في المجتمع الحديث، ويجسد السقوط والقطيعة الموجودة بين الإنسان والواقع وتشخيص الوحدة المفقودة بين الذات والموضوع، ونشد أن التكامل المأمول بينهما، والسعادة الكلية المطلقة المعهودة في الملحمة اليونانية.

وقد أقر هيجل بأن الرواية ملحمة بورجوازية أو ملحمة عالم بدون آلهة، أفرزتها تناقضات المجتمع الرأسمالي، ويبدو من خلال ما كتبه هيجل أنه يفضل الملحمة على الرواية، والشعر على النثر، والقلب على الواقع ."[4]

2 – جورج لوكاش:

انطلق الباحث المجري جورج لوكاتش في تصوراته من منطلق استاذه هيجل ولكن من منطلق مثالي وقد استند في ذلك إلى الفلسفة المادية، الجدلية الماركيسية في تفسيره للمجتمع الرأسمالي وفهم تناقضاته، وقد الح في ذلك على الصفة القائمة بين الملحمة والرواية، وعد الرواية ملحمة تراجيدية بورجوازية، حيث يكون الطرح بين البطل والواقع بأشكال متنوعة ويندرج هذا الطرح وفق ما يسمى ب**البطل الإشكالي** ليتم الصراع بين الذات والواقع لأجل القيم الاصيلة التي يؤمن بها محاولا إثباتها على أرض الواقع

[4] جميل حمداوي، مدخل إلى نظرية الرواية ، موقع pulpit.alwatanvoice.com/articles/2007/12/30

" بيد أن البديل الذي يقترحه لوكاش موجود في روايات تولستوي الروسي الذي قدم بطلا إيجابيا ملحميا على غرار الملحمة اليونانية؛ إذ كان "تولوستوي – حسب لوكاش–هو المؤهل لخلق هذا الشكل من الرواية. مانحا إياه أعظم سورة لتجاوز ذاته نحو الملحمة. إن فن تولستوي عظيم، وملحمي بصورة واقعية، بعيد جدا عن الجنس الروائي، وهو يسعى، بوصفه كذلك، نحو تمثيل حياة مؤسسة على تشارك المشاعر بين البشر البسطاء المرتبطين ارتباطا حميما بالطبيعة، هذا التشارك الذي يتلاءم مع إيقاع الطبيعة الكبير، ويتحرك وفقا لحركتها المضبوطة بالولادة والموت، والذي يقصي كل ما يكون في الأشكال الغريبة عن الطبيعة، من صغار، وانفصال، وتفسخ، وتصلب. [5] "

إن جورج لوكاتش يعود بنا إلى بداية الرواية في المجتمع الرأسمالي من خلال الأعمال الأدبية العظيمة التي ظهرت أمثال (دونكيشوت لسيرفانتس، وروايات الفرنسي الساخر رابلي) وهنا نجد أن الدراسات أثبتت أن كتّاب الرواية قد ناضلوا من أجل حرية الإنسان في القرون الوسطى وحاربوا العبودية، وقد كانت الروح الفردية تمثل اسمى المعاني حيث خاضوا صراعين الأول ضد عبودية الإنسان في المجتمعات الاقطاعية، والثاني ضد تدهور الإنسان في ضل المجتمع الجديد.

"...وقد أثبت لوكاش جدلية الرواية عندما اعتبرها شكلا توفيقيا يجمع بين خصائص الملحمة والتراجيديا. أي إذا كانت الملحمة تعبر عن الوحدة الكلية بين الذات والموضوع أو بين الأنا والعالم ، والتراجيديا تعبر عن القطيعة بين الذات والموضوع، فإن الرواية تتميز بطابع الوحدة والقطيعة لأنها تجمع بين ما هو ملحمي وما هو تراجيدي، ومن ثم، تصبح الرواية شكلا ذا طابع جدلي قائم على الصراع والتغير والدينامية والنفي والتجاوز.

إن اهتمامات لوكاش بالأخلاق وحلمه بالمطلق والشمولية والانسجام بين الأخلاق وعلم الجمال، ساعد على

---

[5] جميل حمداوي، مدخل إلى نظرية الرواية ، موقع pulpit.alwatanvoice.com/articles/2007/12/30

خلق عالم خيالي مثالي وطوباوي عندما فضل الملحمة على باقي الأجناس الأدبية الأخرى ؛لأنه كان يعتقد أن الملحمة اليونانية إنما كانت تترجم الوحدة بين الذات والموضوع واكتمال اللحمة بينهما في عالم منسجم يخلو من الصراع الواقعي النثري ، ناهيك عن عدم ظهور الآفاق التي يمكن للوكاتش أن يحقق فيها مختلف مفهوماته للمطلق مع رفضه لقيم العالم البورجوازي المتدهورة".[6]

ويرى الباحث الجزائري محمد ساري أن اكتشاف لوكاتش للبعد الصوفي الديني في مؤلفات دوستوفيسكي قد ساعدته كثيرا في اصاغ المرحلة الهوميرية بالعصر الذهبي، ومن ثمة اكتشاف الانسجام الحاصل بين الفرد والمجتمع في الملحمة، وقد حصل جورج لوكاتش في كتابه (نظرية الرواية) ثلاثة أنماط روائية حسب بطلها الاشكالي الذي يتصارع بين الذات والواقع:

" **أولا– الرواية المثالية المجردة:** بطلها

مثالي ساذج، حيث يبدو فيها الواقع أكبر من الذات، ويمثلها سيرفانتيس في روايته(دونكيشوت)؛

ثانيا– الرواية السيكولوجية أو رومانسية الأوهام: بطلها رومانسي

ينطوي على ذاته، ويتجاوز الواقع المتردي. وبالتالي، فالذات تبدو أكبر من الواقع على مستوى المعرفة والمعايشة، وخير من يمثل هذه المرحلة الروائية فلوبير في روايته (التربية العاطفية).

ثالثا– الرواية التعليمية أو الرواية التربوية: بطلها

[6] جميل حمداوي، مدخل إلى نظرية الرواية، موقع pulpit.alwatanvoice.com/articles/2007/12/30

متصالح مع الواقع ومتكيف مع الموضوع، وهنا تساوي الذات الواقع ، وتمثلها رواية : سنوات تعلم فلهلم مايستر" لجوته "[7] وهي الرواية الثانية له.

3 –لوسيان غولدمان:

" تعتبر الرواية عند لوسيان گولدمان عبارة عن " قصة بحث عن قيم أصيلة في عالم منحط يقوم به فرد منحط" .

[7] جميل حمداوي، مدخل إلى نظرية الرواية ، موقع pulpit.alwatanvoice.com/articles/2007/12/30

والقيم الأصيلة هنا لم تعد تلك الكلمة الخلقية العامة، وإنما أصبحت عند غولدمان قيم الاستعمال التي تحترم الشيء لذاته، في مقابل القيم المنحطة، أي قيم التبادل التي لا تقدر الشيء إلا بما يساويه من مال. وهذه القيم هي التي يقوم عليها المجتمع الرأسمالي حيث قانون السوق والعرض والطلب. ففي هذه القيم الأخيرة يقوم المال بالدور الرئيسي الوسيط بين الإنسان والسلع، بل بين الإنسان ونفسه مما يؤدي إلى الاغتراب والتشيؤ والاستلاب".[8]

وانطلق لوسيان گولدمان في دراسته السوسيولوجية للرواية من تصور بنيوي تكويني محاولا الاستفادة من تصورات سابقيه (هيجل، ماركس، لوكاتش، فرويد، بياجيه،...) في مقاربة الرواية الغربية التي افرزتها البرجوازية الغربية محاولا بذلك دراسة وفهم الرواية من خلال بعض المفاهيم الأساسية وهي " التشيؤ والبطل الإشكالي والتماثل والبنية الدالة والرؤية للعالم ونمط الوعي. فاستخلص بأن الرواية البيوغرافية في القرن التاسع عشر كانت تعبيرا عن الرأسمالية الفردية. أما في بداية القرن العشرين، فقد كانت الرواية المنولوجية أو رواية تيار الوعي تجسيدا لرأسمالية الشركات. أما الرواية الجديدة مع نتالي ساروت وكلود سيمون وآلان روب گرييه وجان ريكاردو وميشيل بوتور... فكانت تعبيرا عن المجتمع التقني الآلي"[9]

---

[8] جميل حمدان، مدخل إلى نظرية الرواية، موقع pulpit.alwatanvoice.com/articles/2007/12/30

[9] جميل حمداوي، مدخل إلى نظرية الرواية، موقع pulpit.alwatanvoice.com/articles/2007/12/30

1-ميخائيل باختين:

ميخائيل باختين لا يقل أهمية عن سابقيه في إعطاء تصوراته عن جنس الرواية حيث كانت الرواية ملحمة برجوازية ونموذج أدبي يعبر عن نثر المجتمع البرجوازي الفردي وهذا ما رآه كل من هيجل ولوكاتش وجولدمان، غير أن الروسي باختين تمثل الرواية عنده

" أدبا شعبيا و جنسا سفليا ومتخلل (genre intercalaire)نابعا من الأجناس الأدبية الدنيا،وهي كذلك تعبيرا عن الأوساط الشعبية والفئات البروليتارية الكادحة . ويرى في الوقت نفسه أن الرواية هي " التنوع الاجتماعي للغات، وأحيانا للغات والأصوات الفردية، تنوعا منظما أدبيا، أي إن الرواية تستند إلى تعدد الملفوظات الحوارية والتناصية. " يعني هذا أن باختين يفضل الرواية على الملحمة لطابعها التعددي اللفظي والاجتماعي (البوليفوني) الذي يتمظهر في تعدد أساليبها ولغاتها ولهجاتها وخطاباتها ومنظوراتها، بينما الملحمة تستند إلى

منولوجية رتيبة لوجود أحادية الإيقاع والأسلوب والتخاطب" [10]

6 – مارت روبير:

إن منطلق هيجل وجولدمان في تحديد الرواية كان يتأسس من أصول اجتماعية، في حين كانت عند مارت روبير تنطلق من أصول نفسية وجودية، وذلك بالاستناد إلى التحليل النفسي عند فرويد(الدين والفن)، وقد ارجع روبيرت مارت أصول الرواية إلى أصول الإنسان الطفولية، ورغباته الغريزية الدفينة، والصراعات الأوديبية التر تترجم ثنائية الجريمة والعقاب، أي أن الرواية حسب مارت هي تعبير عن ذات الكاتب الشخصية وطفولته المثالية الحالمة وطموحه للبحث عن السعادة الضائعة لان كل روائي يعكس ذاته وطفولته وفضاءه الذي يعيش فيه.

هذا، ويؤسس" مارت روبير –حسب الناقد الروائي فيصل دراج–نظريته، في الرواية، على "الرواية الأسرية"، موحدة بين عقدة أوديب وولادة الرواية، إذ الجسد محور العالم، وإذ الانتهاكات كلها تتم باسم الجسد. وما الكتابة الروائية إلا تصعيد للرغبات وصد لعنف الغرائز العدوانية، كما لو كان الإنسان يكتب رواية الجريمة كي يعصم نفسه عن اقترافها. رواية قديمة مكتوبة قبل كتابتها، ترمي عليها التحولات الاجتماعية–التاريخية بأقنعة متغايرة ...فالرواية أثر مرضي من آثار طفولة قديمة، لا تنحرف عن البديهة إلا قليلا، لأن كل طفل، صاغ في صمت حلمه، رواية لم تهجره أبدا. يصوغ كل إنسان، وعلى نحو شعوري في طفولته، رواية، وينساها أو يكبتها، حين يفرض وعيه عليه أن يلقي بها في ثنايا النسيان، كي يعود إليها، لاحقا، إن

[10] ينظر، جميل حمدان، مدخل إلى نظرية الرواية، موقع pulpit.alwatanvoice.com/articles/2007/12/30

عثر على شروط تعيد كتابة ما بدا، يوما، منسيا وغارقا في النسيان"[11].

الرواية تعبير عن النوستالجيا وتجسيد للذات في صراعها الوجودي والنفسي (الشعور، اللاشعور) الذي يعاني منه الإنسان سواء اكان كاتبا أو مبدعا، وعلى الرغم من تحديد خصائص هذا النوع، إلا أن الباحثين لم يتوصلوا " إلى أي سمة ثابتة ومستقرة للرواية دون إبداء تحفظات تقضي على هذه السمة بالإعدام...فالرواية جنس أدبي مفتوح وهي النوع الأدبي الوحيد الذي لم يزل في طور التكوين ولم يكتمل بعد"[12]

والرواية تختلف ما بين كاتب وآخر في طرائق أسلوبها وخصائصها الفنية، وهي تنفتح على جميع الخطابات الأخرى لتضفي جمالية على نصوصها.

---

[11] ينظر، جميل حمدان، مدخل إلى نظرية الرواية، موقع pulpit.alwatanvoice.com/articles/2007/12/30

[12] ينظر، جميل حمدان، مدخل إلى نظرية الرواية ، موقع pulpit.alwatanvoice.com/articles/2007/12/30